الأيّام الأخيرة للقدّيس صفروني ورقاده

الأرشمندريت زخريا (زاخارو)

س: هل يمكنكَ أن تخبرنا عن آخر أيّام الأب صفروني؟

ج: لا أعلم ماذا أقول. لقد كان "رجل الله"، وكان كيانه كلُّه مستغرقًا في الله حتّى آخر أيّامه. وبما أنّه كان نبيلًا ولطيفًا للغاية، فعندما كان يُكلّمنا بالروسيّة أو اليونانيّة، لم يكن يخاطبنا بصيغة المفرد مطلقًا، بل دائمًا بصيغة الجمع. كان حازمًا معنا عندما يلمح فينا كبرياء، لأنّه كان يعلم أنّه إن لم "يقوّمْنا" فسنسقط. في ما عدا ذلك، كان مُحبًّا جدًّا وعطوفًا. كنّا نذهب إليه ونُتعبه، ولا سيّما أنا، إذ كانت لديّ أسئلةٌ كثيرة. وعندما كان يتعب، ولكي يُفهِمنا أنّ تكلّمنا بما يكفي، كان يُنشِدُ أهجوزةً لطيفةً بالروسيّة تشبه القصيدة:

«اسمحوا لي بأن أشكركم، وأُعربَ عن امتناني ورِضا قلبي، وأنصرف».

قبل أسبوعَين من رقاده، فيما كان يرافقني نحو باب بيته، نظر نحو المدفن[1] وسأل: "كم من الوقت يلزمُ بعد لكي ينتهي؟". فأجبتُه: "أسبوعان آخران، على ما أظنُّ". فقال: "يصعبُ عليّ الانتظار ولو لساعةٍ واحدة؛ لقد قلتُ كلَّ شيءٍ للربّ، والآن ينبغي لي أن أرحل". كم هو رائعٌ أن يشعر المرء في قلبه بأنّه قد خاطبَ الربَّ في كلّ شيء، ولم يتبقَّ سوى الأبديّة، وأنّه مستعدٌّ للرحيل.

ذهبتُ لرؤيته مرّةً أخرى، قبل أسبوعٍ من رقاده. وكان مستلقيًا على السَّرير، في حين أنّه كان في الأيّام السَّابقة يجلس كعادته في كرسيّه ذي الذراعَين. سألني: "هل كتبتَ الكتاب الّذي طلبتُ منكَ أن تكتبه؟". وكان قد طلبَ منّي أن أكتب كتابًا لم أتمكّن من إصداره إلّا في الصيف الماضي. فأخبرتُه بأنّني كتبتُ فصلَين، وشرحتُ له محتواهما. فقال: "يجب أن تضعهما في البداية"، ثمّ أردف: "سأخبركَ بالنقاط الأربع المركزيّة في نظريّتي عن الشَّخص". وبسّطَ لي بإيجازٍ نظريّته الكاملة عن «المبدأ الأقنوميّ»، كما يُسمّيه. كانت تقعُ في

[1] مدفن الدير الواقع تحت الأرض، والموجود تمامًا في مواجهة الباب الخارجيّ لبيته. هناك سنُدفن جميعنا، وبطبيعة الحال، كان الشيخ صفروني سيكون أوّلنا. في ذلك الوقت، كنّا لا نزال نبنيه؛ كانت الجدران والسقف جاهزة، لكن لم تكن الأرضيّة قد أنجزت بعد.

نحو صفحةٍ واحدةٍ ولكنّها كانت مكثّفةً جدًّا – في أربع نقاط. وأخذَ يُرشدني إلى كيفيّة مواصلة كتابة الكتاب.

قبل أربعة أيّامٍ من رقاده، أغمضَ عينيه ولم يعُدْ يكلّمنا. لم يكن وجهُه حزينًا البتّة، بل كان مُشرقًا ومفعَمًا بالحياة. وكانت تعابير وجهه عينها الّتي كانت تظهرُ عندما كان يقيم القدّاس الإلهيّ. قبل أسبوعَين أو ثلاثة من رقاده، دعا جميع الإخوة، واحدًا واحدًا، ليذهبوا ويجلسوا معه في مطبخه نحو ساعة، ليتحدّثوا معه للمرّة الأخيرة. وكنّا نحن الآباء الّذين نملك مفتاحَ بيته نذهبُ لزيارته بانتظام. كنّا ندخل ونقول: "باركْ أيّها الشيخ". فلم يكن يفتح عينيه أو ينطق بكلمة، لكنّه كان يرفعُ يده ويباركنا. كان يباركنا من دون كلام، وفهِمنا أنّه راحل. ولذلك، لم أعُدْ أرغب أنا شخصيًّا في استبقائه. فقبلَ ذلك، كنتُ أُصلّي أن يُطيل الله عمره، كما نقول في قدّاس القدّيس باسيليوس الكبير: "شدِّد الشُّيوخ". ولكن في تلك الأيّام، رأيتُ أنه ماضٍ، فبدأتُ أُصلّي مُستخدمًا كلمات الرسول بطرس: "يا ربُّ، هبْ لعبدكَ دخولًا رحبًا إلى ملكوتك، وأقمْ نفسَه مع آبائه"[2]، وأذكرُ جميع رفاقه في النُّسك الّذين علمتُ أنّهم كانوا معًا في الجبل المقدّس، بدءًا بالقدّيس سلوان ثمّ بقيّة الآخرين.

في اليوم الأخير، ذهبتُ لرؤيته في السادسة صباحًا. كان يومَ أحدٍ وكنتُ سأقيم القدّاس الإلهيّ المبكر، وسيُقيم الأب كيريل والكهنة الآخرون القدّاس الثاني.[3] أدركتُ أنّه سيُغادرنا في ذلك اليوم. بدأتُ خدمة التقدمة، ثمّ بدأت خدمة السَّاعات عند السَّابعة وتلاها القدّاس الإلهيّ. خلال القدّاس، كنتُ أصلّي باستمرار: "يا ربُّ هبْ لعبدكَ دخولًا رحبًا إلى ملكوتك الأبديّ". وكان ذلك القدّاس مختلفًا عن كلّ القداديس الأخرى. وفي اللَّحظة التي قلتُ فيها: "القدُسات للقدّيسين"، دخلَ الأب كيريل فجأةً إلى الهيكل. نظرنا الواحد إلى الآخر، وكان التأثُّر باديًا عليه، فعلمتُ أنّ الشيخ صفروني قد رحل. عندما سألتُ عن وقت وفاته، أدركتُ أنّه كان وقت تلاوتي الإنجيل. تنحّيتُ جانبًا لأنّ الأب كيريل أراد التحدُّث إليّ، فقال لي: "تناولْ وناوِلِ المؤمنين، ثمّ أعلِنْ رحيل الأب صفروني وأقمْ صلاة التريصاجيون الأولى، وأنا سأفعلُ الأمر عينه في القدّاس الثاني". فجزّأتُ الحمل، وتناولت وناولتُ المؤمنين، وأنهيتُ القدّاس (لا أعلم كيف استطعتُ ذلك). ثمّ خرجتُ وقلتُ للناس:

[2] راجع 2بط 1: 11.

[3] لدواعٍ عمليّة، كنا آنذاك نقيم في أيّام الآحاد قدّاسين في ديرنا؛ الأوّل عند السابعة صباحًا، والثاني عند العاشرة والربع.

"يا إخوتي الأحبّاء، إنّ المسيح إلهنا هو آية الله لجميع أجيال هذا الدّهر، لأنّنا نجدُ في كلامه الخلاصَ والحلَّ لكلّ مشكلةٍ بشريّة. إلّا أنّ قدّيسي الله جميعًا هم أيضًا آيةٌ لجيلهم، وقد أعطانا الله أبًا كهذا في شخصِ الشيخ صفروني، إذ وجدْنا في كلامه الحلّ لجميع مشكلاتنا. والآن، يجب أن نفعل ما يعلّمنا إيّاه القدّاس الإلهيّ، أي "أن نشكر"، و"نتضرّع"، و"نبتهل". إذًا، فلنشكُرِ الله الّذي منحَنا أبًا كهذا، ولنُصلِّ من أجل راحة نفسه. تباركَ الله إلهنا..."

وبدأتُ خدمة التريصاجيون.

سجَّيناه في الكنيسة مدّة أربعة أيّامٍ لأنّ المدفن لم يكن قد اكتملَ بعد، ولم يكن القبر قد بُنيَ. قرأنا بتواصلٍ الأناجيلَ المقدّسة من أوّلها إلى آخرها، وكرّرنا ذلك، كما جرت العادة عند رُقاد الكهنة. قرأنا الأناجيل المقدّسة وأقمنا صلوات التريصاجيون وغيرها من الصلوات. وأقمنا الخدم والقداديس، وكان هو هناك في وسطِ الكنيسة مدّة أربعة أيّام (كان الجوّ يماثِلُ الفصح حقًّا، جوّ جميل ومبارَك). لم يُصَبْ أحدٌ بالهستيريا، بل سادَ سلامٌ تامّ. وكنّا جميعنا نُصلّي بإلهامٍ روحيٍّ عميق. جاء أحدُ أصدقاء الدير (سيمَ أسقفًا لاحقًا) فور سماعه برقاد الشيخ صفروني، وشعر بالجوّ فقال لي: "إذا لم يكن الأب صفروني قدّيسًا فلا وجود للقدّيسين إذًا!". وصادفَ أن كان عندنا رهبانٌ من الجبل المقدّس قد جاؤوا لرؤية القدّيس صفروني، لكنّهم لم يجدوه حيًّا. كان أحدُهم الأب تيخن من دير السيمونوبترا.

في كلّ مرّةٍ كان يقصد فيها أشخاصٌ يونانيّون إنكلترا لدواعٍ طبيّة، كانوا يأتون إلى الدير ليقرأ لهم الأب صفروني صلاةً لأنّ الكثيرين كانوا يبرأون. ويُخبرون كلُّهم بأمورٍ كهذه، حتّى إنّ اثنين منهم شيّدا، بدافع الامتنان، كنيسةً في اليونان على اسم القدّيس سلوان. في اليوم الثالث أو الرابع من رقاد الأب صفروني، جاءت عائلةٌ برفقة صبيٍّ في الثالثة عشرة من عمره، كان لديه ورمٌ في الدماغ وموعد عمليّته في النهار التالي. فجاءني الأب تيخن السيمونوبيتريتيّ وقال لي: "هؤلاء الناس حزينون جدًّا، وجاؤوا ولم يجدوا الأب صفروني. لمَ لا تقرأ بعض الصلوات للصبيّ؟". فأجبتُه: "فلنذهبْ معًا. تعالَ معي لتؤدّي دور القارئ. سوف نقرأ بعض الصلوات في الكنيسة المجاورة". ذهبنا وقرأنا بعض الصلوات للصبيّ، وفي النهاية قالَ لي الأب تيخن: "لمَ لا تجعل الصبيّ يمرُّ تحت نعش الشيخ صفروني؟ سوف يُشفى. نحن نُضيّعُ وقتنا في قراءة الصلوات". فأجبتُه بأنّني لا أستطيع فعل ذلك لأنّ الناس سيقولون إنّه ما إن ماتَ حتّى أخذنا نُروّج لقداسته. وأردفتُ: "افعلْ ذلك أنتَ. أنتَ

راهبٌ آثوسيّ، ولن يتجرّأ أحدٌ على قولِ شيء". فأخذ الصبيّ بيده وجعله يمرُّ تحت النعش. وفي اليوم التالي، أجروا له العمليّة فلم يجد الأطبّاءُ شيئًا. فأغلَقوا رأسه وقالوا: "تشخيصٌ خاطئ. لا بدّ من أنّه كان التهابًا". وكان يرافق الصبيّ طبيبٌ من اليونان، وكانت بحوزته الصورة الشُّعاعيّة التي تُظهر الورم بوضوح، فقال لهم: "نحن نعلمُ جيّدًا ما يعنيه هذا التشخيص الخاطئ". وفي الأسبوع التالي، جاءت إلى الدَّير عائلةُ الصبيّ كلّها، وكانت من تسالونيكي، لتُقدّم الشُّكر للشيخ صفروني عند قبره. حدثَ هذا فورًا بعد رقاد الشيخ. سامِحوني لقد أطلتُ الكلام أكثر ممّا ينبغي.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Archimandrite Zacharias Zacharou (2023). The Last Days and the Repose of Saint Sophrony, extract from the book *The Enlargement of the Heart*. Stavropegic Monastery of Saint John the Baptist, Essex, UK. Retrieved online from *Essex Monastery.*